﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾ [الأحقاف: 31 - 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من التَّوطئة إلى الغاية تدرُّجٌ في الخطابِ بديعٌ

لمّا جاءَ الخطاب من النَّفر المؤمن من الجنِّ في الآية السّابقة لقومِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وكان ذلك توطئةً وتعريفًا وبيانًا لما سَمِعوه؛ ناسب أن يذكر بعد ذلك الغايةَ الَّتي لأجلِها كانت التَّوطئة في الآيةِ السّابقة، وهي التَّرغيب في إجابة الدّاعي إلى دينِ الله تعالى، والتَّرهيب من عدم الإجابة، فهو انتقالٌ من التَّوطئة والتَّمهيد إلى ذكر الغاية الجامعةِ بين التَّرغيب والتَّرهيب، أو من الإخبارِ المجرَّد إلى الطَّلب المفرد؛ توسُّلًا بالخبر المجرَّد إلى الطَّلب المكلِّف، ففي تقديم الأخبار بين يدي الطَّلب توطئةٌ مؤثِّرة وفاعلة في قبول المخاطَبين إيّاه، وبخاصَّة حين تُبَيِّن الأخبار جوانبَ الخير في المخبَر عنه، وقد بَيَّن الخبر هنا مزايا الكتاب بين يدي الدَّعوة إلى الإيمان به، وذلك الأسلوب يُعطي المنهجَ الأمثل ببيان الخير وجوانب النَّفع فيه، ثمَّ بناء الطَّلب والدَّعوة إليه، وهذا من بديع الانتقال القائم على التَّدرُّج في الخطاب.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجِيبُواْ﴾: الجَوْبُ: قَطْعُ الجَوْبَة - وهي كالغائط من الأرض - ثمَّ يُستعمل في قطع كلِّ أرض، قال تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ [الفجر: 9]، والجواب يقال في مقابَلة السُّؤال، والسُّؤال

على ضربين: طلب مقال، وجوابُه المقال، وطلب نَوال، وجوابه النَّوال، فعلى الأول: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وعلى الثاني قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]، أي: أُعطيتما ما سألتما.

والاستجابة هي التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عُبِّر به عن الإجابة لِقلَّة انفكاكها منها، قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][1].

فإجابةُ داعي الله تعالى: تلبية دعوته إلى الإيمان، وتصديق ما جاء به من عند الله تعالى.

2) ﴿دَاعِيَ﴾: (دعو) أصل واحد، وهو أن تُميل الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلام يكون منك، تقول: دعوتُ أدعو دعاء[2]، والدُّعاءُ: الرَّغْبَة إلى الله ﷻ، دَعاهُ دُعاءً ودَعوى، ومِن كَلامهم اللّهمَّ أشركنا في دَعوَى المُسلمين، دَعوتُ له بِخَير، وعَليهِ بشر[3]، والنَّبيُّ ﷺ داعي الأمَّة إلَى تَوحيد الله تَعالَى وطاعته، قالَ الله تَعالى مخبرًا عَن الجنِّ، الَّذين استَمعوا القُرآن، وولَّوا إلَى قَومهم منذرين: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾[4]، فداعي الله في الآية الكريمة يحتمل أن يكون القرآن، ويحتمل أن يكون الرَّسول ﷺ، والأولى حمله على المجموعِ، وهو أن يكون الرَّسول والرِّسالة، فإنَّ الوحي عبارةٌ عنهما جميعًا.

3) ﴿وَيُجِرْكُم﴾: أجارَ يُجير أجِرْ إجارةً، فهو مُجير، والمفعول مُجارٍ، أجاره الله من العذاب: حماه منه، وأنقذه، جعله في جواره وحمايته: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: 22]، واستجار فلانًا: سأله أن يؤمِّنه، ويحفظه، أو أن يوفِّر له الأمنَ والحماية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: 6]، واستجار بالله: استغاث به، والتجأ إليه[5].

فمعنى قول الجنِّ: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: ينقذكم، ويؤمِّنكم، ويُغِثكم، ويحفظكم من عذاب وجيع، ويمنحكم حقوق الجوار من الحماية والذَّود والدِّفاع عنكم.

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (جوب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (دعو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (دعو).
(5) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جور).

4) ﴿بِمُعْجِزٍ﴾: (عجز) أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما على الضَّعْفِ، والآخَرُ على مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ. فالأوَّلُ: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أيْ: ضَعيفٌ[1]، ويُقالُ: أعْجَزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتُ عَنْ طَلَبِه وإدْراكِه[2]، والمَعْنَى المحوريُّ: رَخاوَةُ المُجْتَمِعِ في أسْفَلِ الشَّيْءِ وطَراءَتُهُ لِذَهابِ الشِّدَّةِ والقوَّةِ مِنْ أثْنائِه[3]، وعَجَّزَ الرَّجُلُ وعاجَزَ: ذَهَبَ، فلَم يوصَل إليه[4]، فالمُعْجِزُ: الغالِبُ غَيْرَهُ بانْفِلاتِه مِن قَبْضَتِه[5]، وقَوْلُهُ: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لَنْ تَخْرُجوا، أو تَنفلتوا من قَبْضَةِ اللّه وعقابه لعدم الإجابة، فلا يُعجِز اللّه تعالى شيءٌ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيتان الكريمتان ما قاله النَّفَرُ المؤمنُ من الجنِّ لِقومهم: يا قومنا تَدارَكوا أنفسكم بتلبية هذا الدّاعي، الَّذي أتانا من عند اللّه تعالى، وآمنوا بهذا الكتاب الهادي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم، فتفوزوا بمغفرةِ ما بينكم وبينه ﷻ من ذنوب وسيِّئات، فينقذكم من عذابه الأليم.

إجابةُ داعي الله نجاةٌ في الآخرة، والـتُّـكـوصُ عنه مهلكةٌ في الدّارين

ولتعلموا أنَّ مَن لا يُلَبّي هذا الداعي الكريم، ولا يجيبُه إلى الإيمان، فلا فَوْت له من عذاب اللّه تعالى، ولا مهرب له، ولو دخل في باطن الأرض، ولن يجد له ناصرين ينصرونه من عذاب اللّه ﷻ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل جملة النِّداء:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبله لِوَثاقة

بيانُ ما يجب من الاستجابة لكتاب الله تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عجز).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 103.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (عجز)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

اتِّصالهما المعنويِّ، وعدم حاجتهما إلى رابط لفظيٍّ؛ ذلك أنَّ جملة: ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ مقول قولهم في الجملة الأولى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾، والجملة هنا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ﴾ من مقول هذا القول، "أي: وقالوا لقومهم أيضًا: يا قومنا أجيبوا داعي الله"[1]، فهذه الجملة من باب البيان لما تقدَّم، فإنَّ الجملة الأولى الَّتي هي توطئة نُزِّلت منزلة الجملة المبيَّنة، والجملة الثّانية هي المبيِّنة، فإنَّ الإخبارَ بسماع كتاب من بعد موسى عليه السلام، يحتاج إلى مزيد بيانٍ في ذكر الغرض، وعلى هذا تكون الجملة من باب كمال الاتِّصال، وتحتمل أن تكون من الاستئناف البياني، أي: فماذا قالوا لهم بعد أن أخبروهم ما أخبروهم به، فجاءت الجملة الأخرى بمنزلة شبه كمال الاتِّصال.

بلاغةُ تكرار النِّداء:

اختلافُ الأغراضِ وتجدُّدها يقتضي الإعادةَ والتَّكرار

أُعيد ذكر النِّداء ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ في الجملة الثانية، مع تقدُّم ذكره في الأولى، فلم يقل مباشرة: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ "للاهتمام بما بعد النِّداء، وهو أجيبوا داعي الله إلى آخره؛ لأنَّه المقصود من توجيه الخطاب إلى قومهم، وليس المقصود إعلام قومهم بما لقوا من عجيب الحوادث، وإنَّما كان ذلك توطئة لهذا، ولأنَّ اختلاف الأغراض وتجدُّد الغرض ممّا يقتضي إعادة مثل هذا النِّداء، كما يُعيد الخطيب قوله: (أيُّها النّاس)، كما وقع في خطبة حجَّة الوداع"[2].

ولِما للنِّداء من تأثير في المنادَى، وبخاصَّة إذا كان بأداة البُعد المشعِرة ببُعد منزلة المنادَى في الكرامة على المنادي، وإذا كان المنادَى مضافًا إلى ضمير المنادي مثل قولهم: (قومنا)؛ فإنَّه أفعل في النَّفس، وأنفى للشَّكِّ والارتياب فيما يعرضونه عليهم، وأكثرُ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 206.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

استمالةً وتَعَطُّفًا وتلطُّفًا بالمنادَى، ممّا يَضمن قبول الأمر الآتي بعدُ بدرجة كبيرة؛ لذلك "نجح هذا الأُسلوب في كثير منهم، فجاؤوا إلى رسول الله يبتغون سبيل الهدى والرَّشاد"[1].

غرضُ الأمر ودلالته:

أمرُ الدُّعاةِ ملزِمٌ باعتبارِ مصدره الإلهيِّ

الأمر في قوله تعالى على لسانِ الجنِّ المؤمن لقومهم: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ محمولٌ على الإلزام؛ لأنَّ المخاطَبين مؤمنون، وهم مؤمنون بما أُنزِل على موسى عليه السلام، فإنَّهم يأمرونهم بما يُؤمنون به، والإيمان وموجباته ملزِمةٌ لصدورها عن الله تعالى.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة الإجابة دون الاستجابة:

زياداتُ الحروفِ يجب أن تكونَ حاويةً للمعاني بحسب السّياق

جاء التَّعبير بصيغة الإجابة دون الاستجابة في قوله تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لما في الحثِّ على الإجابةِ من السُّرعة والمبادرة، بخلاف الاستجابة ففيها السّينُ والتّاء الدّالّتان على المبالغة والتَّوكيد أو الطَّلب، والسّياق الَّذي تكلَّم فيه النَّفرُ المؤمن من الجنِّ ليس بحاجةٍ إلى مثل هذه المعاني المُضافة على أصل فعل الإجابة، فجاءت على بابها، فإنَّ زيادات الحروف يجب أن تكون حاويةً للمعاني البلاغيَّة بحسب السّياق الواردة فيه، كما أنَّه في يُسر لفظ الإجابة إلماح إلى يُسر تنفيذها في اعتناق الدّين.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿أَجِيبُواْ﴾:

الإجابةُ دليلُ العملِ

استُعير فعل ﴿أَجِيبُواْ﴾ لمعنى "اعملوا، وتقلَّدوا؛ تشبيهًا للعمل بما في كلام المتكلِّم بإجابةِ نداءِ المُنادي، كما في آية: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: 22]، أي: إلّا أن أمرتكم، فأطعتموني؛ لأنَّ قومَهم لم يَدعُهم داعٍ إلى شيء، أي: أطيعوا ما طلب منكم أن تعملوه"[2].

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 937.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

دلالةُ الأمر بالإجابة قبل الأمر بالإيمان:

التَّرتيبُ باعتبار الوجودِ الفعليِّ

قُدِّمَ ذكرُ طلبِ الإجابة على طلب الإيمان في قول نفر الجن المؤمن: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ باعتبارِ التَّرتيب الفعليِّ، فإنَّ الإيمانَ لا يكون إلّا بعد الإجابة بمعنى قبولِ الدَّعوةِ والعمل بمقتضاها من الإيمانِ وغيره من الأحكام، فإنَّ قبولَ الدَّعوةِ يكون أوَّلًا، ثمَّ الإيمانُ بالله تعالى، فالإنسانُ يُجيب الدَّعوة، ثمَّ يؤمن بها، وقبولُ الدَّعوةِ في الغالب ينشأ عنه إيمانٌ بها، فمعنى ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾: "أجيبوا رسول الله محمَّدًا إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله"[1]، ومعنى ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾: آمنوا بالله تعالى، فإنَّ الإجابة لرسولِ الله ﷺ، والإيمان بالله تعالى، ومن أجاب رسول الله؛ فإنَّما استجاب لله، ومن آمن بالله؛ فإنَّما آمن برسول الله.

نكتةُ حذف متعلِّق فعل ﴿أَجِيبُواْ﴾:

حُذِف متعلِّقُ فعل ﴿أَجِيبُواْ﴾ بغرضِ الاتِّصاف بصفة الإجابة، أي: كونوا مجيبين لداعي الله، أو للعمومِ، أي: أجيبوه في كلِّ ما يأمركم به.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ دون (رسول الله):

رسـولُ الـلـه رسـولٌ للإنسِ بشكلٍ مباشر وللجنِّ بشكلٍ غيرِ مباشر

في إيثار النَّظم الكريم التَّعبير بـ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ - على القولِ بأنَّ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ هو (رسول الله) - دون التَّعبير بـ (رسول الله) استثارةٌ لأحاسيس النَّخوة في قومهم، ومناغاةٌ لعواطفهم، وتنبيهٌ لهم إلى فرصة اقتناص ذلك الشَّرف ونيل مكرُمة الإجابة، وبخاصَّة أنَّ الداعي هو ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ، أمّا التَّعبير بإجابة (رسول الله)؛ ففيه تكليفٌ خالٍ من مُناغاة الأرواح بما في ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ من تلك الإشارة، كما أنَّ ذِكرَ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يُشير إلى أنَّ رسول الله ﷺ ليس رسولًا مباشرًا للجنِّ، فهو داعٍ إلى الله تعالى، وعلى الجنِّ أن يمتثلوا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 141.

له، فدلَّ لفظ الدّاعي على العمومِ، بينما يوحي لفظ (رسول) بالخصوصِ، فهو رسولٌ مباشر للإنسِ وغير مباشرٍ للجنِّ، ولو كانت رسالتُه للجنِّ مباشرةً، وهو مكلَّفٌ بدعوتِهم دعوة مباشرة، كما هي للإنس؛ لكان رسولًا لهم، ولقيل: (أجيبوا رسول الله)، فأتى النَّظم باللَّفظ الأنسب بالمقام.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾:

الـقـرآنُ الكريم داعٍ إلـى الله تعالى

على القولِ بأنَّ معنى: ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ القرآن الكريم؛ بناءً على المذكور في السِّباقِ: ﴿سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾، فهو استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة في اسم الفاعل ﴿دَاعِيَ﴾؛ وذلك لأنَّه "يشتمل على طلب الاهتداء بِهَدْيِ الله تعالى، فشُبِّه ذلك بِدُعاء داعٍ إلى الله تعالى، واشتُقَّ منه وصفٌ للقرآن بأنَّه ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾"[1].

دلالةُ إضافة ﴿دَاعِيَ﴾ لاسم الجلالة:

الإضـافـةُ تحمل معنى الغاية والتَّعليل

إضافة ﴿دَاعِيَ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ تُفيض على المضاف ﴿دَاعِيَ﴾ من جلال المضاف إليه ﴿ٱللَّهِ﴾ ما يوجب توقير هذا المضاف، وما يقتضي إجابتَه إلى دعوته واعتناق دينه؛ لأنَّه داعي الحقِّ، وداعي الخير، وداعي التَّوفيق إلى ما فيه أسبابُ السَّعادة كلِّها في الدُّنيا والآخرة، فالإضافةُ أتت بمعنى اللّام على معنى: داعي لله، وبمعنى (من) على معنى: داعي من الله، فأفادت أنَّ غايته هي الله تعالى؛ لأنَّ مصدريَّته من الله تعالى.

نوعُ (الواو) ودلالتها:

الإجـابـةُ مقدّمةُ الإيمانِ والإيمان يُـحـافـظ عـلى الإجابة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ عاطفةٌ؛ إذ تَجمع بين طلبهم إجابةَ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وبين طلبهم الإيمانَ به ﷺ، والإجابةُ والإيمان بعضُهما من بعض، ويقتضي بعضُهما بعضًا؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.

فالإجابة مقدِّمة الإيمان، والإيمانُ هو الَّذي يحافظ على استمرار الإجابة والإقبال على الله تعالى.

نوعُ (الباء) ودلالتُها:

الإيمانُ بالله استعصامٌ وتحصُّنٌ ولِواذ وعياذ من كلِّ سوء

(الباء) في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ باء التعدية، وتعدية فعل الأمر بالإيمان بها يضَمِّنه معانيَ عدَّة أفعال أخرى، منها (استمسكوا به)، و(اعتزّوا به)، و(تحصَّنوا به)، و(لوذوا به)، و(اكتفوا به) وغيرها من الأفعال الَّتي تتعدّى بالباء، ممّا يربط العبد بذلك الكتاب المجيد وبذلك الرَّسول ﷺ.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾:

ترجيحُ عودةِ الضَّمير إلى الله تعالى الأوفق بالسّياقِ سباقًا ولحاقًا

يرجعُ الضَّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ إلى المضاف ﴿دَاعِيَ﴾ على الاحتمالين المذكورين، وهما القرآن الكريم، والرَّسول ﷺ، أو يرجع إلى المضاف إليه، وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى، وهو الأولى، على قاعدة عودة الضَّمير لأقرب مذكور، وهو ما يستسيغه المقام، وهو ما جرت عليه عادة القرآن، فمَن آمن بالله تعالى؛ آمن بالرِّسالة والرَّسول، وهو "المناسِب لِتناسُق الضَّمائر مع ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ و﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾"[1]، فهو المتَّسق سباقًا ولحاقًا.

فائدةُ اختيار فعل ﴿يَغۡفِرۡ﴾ جوابًا للطَّلب:

المغفرةُ سترٌ وقبولٌ ووعدٌ بالمزيدِ

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الغَفْر في جواب الطَّلب ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾؛ لأنَّ الغَفْر في اللُّغة هو "السَّترُ والتَّغطية"[2]، فغَفر الذُّنوب يستلزم "سَلْب عقوبةِ الذَّنب"[3]، فـ "يستر، ويسامح"[4]، والمعنى: "يتغمَّد لكم ربُّكم مِن ذنوبكم، فيسترها عليكم، ولا يفضحكم بها في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 61.
(2) الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 3/ 166.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 19/ 11932.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 183.

الآخرة بعقوبته إيّاكم عليها"[1]، فالغفرُ جامعٌ لمعنى السَّتر والتَّجاوز، ووعدٌ بالقبولِ، وترغيبٌ بالمزيد.

نكتةُ بناءِ فعل ﴿يَغۡفِرۡ﴾ للفاعل:

الكريم إذا مَنَحَ بنفسه؛ منح على قدره

جاء فعل جواب الأمر ﴿يَغۡفِرۡ﴾ مبنيًّا للفاعلِ إكرامًا لِمن أجاب ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وآمن به، ودليلًا على تهيُّؤ هذا العبد المؤمن لفضل الله تعالى عليه مباشرة، ففي إسناد فعلِ ﴿يَغۡفِرۡ﴾ لضميرِ اسم الجلالة بشارةُ خيرٍ، وسعادة بالنَّجاة من الغضب الإلهيِّ والنّيران، ونيل ما يتَّبع ذلك من التَّحلية بالرِّضوان والجنان؛ لأنَّ الكريم إذا منح بنفسه؛ منح على قدْره.

نوعُ (اللام) ودلالتها:

من أجاب داعي الله تعالى؛ اختصَّه سبحانه بمغفرته

(اللام) في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم﴾ هي (لام) الاستحقاق، أي: إنَّكم بإيمانكم وإجابتكم تستحقّون المغفرة بإذن الله تعالى، أي: تصلُحون، وتتهيَّؤون لمغفرة بعض ذنوبكم، أو هي (لام) الاختصاص، أي: إن تجيبوا داعي الله تعالى، وتؤمنوا به؛ تظفروا بمغفرة منه ﷻ مباشرة.

نكتة تقديم ﴿لَكُم﴾ على ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾:

اختصاصُ النُّفوس ببعض المزايا يستميلها

قُدِّم ذِكرُ الجار والمجرور ﴿لَكُم﴾ على القيد ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ وفاءً بمقام التَّرغيب، ودعْمًا للاستمالة، وتنبيهًا بهذا التَّقديم إلى مدى الإفادة الَّتي يُفيدونها من إجابة داعي الله والإيمان به، ففي هذا التَّقديم معالجةٌ لنفوس المخاطَبين المهمومين بذنوبهم، ففي التَّقديم عنايةٌ واهتمامٌ بشأنِهم.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ للتَّبعيض، أي: يغفر لكم بعض ذنوبكم، وإن كان التَّبعيض لا يناسب

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 172.

مقام التَّرغيب غير أنَّ نفر الجنِّ لا يملكون قرار المغفرة التّامَّة، ولا يضمنونه؛ لأنَّ هذا القرار لله وحده لا شريك له، فاحترسوا بذلك التَّبعيض من الجُرأة في الوعد بالمغفرة، وأظهروا حُسْن أدبهم بتفويض المغفرة إلى ربِّهم، فهو سبحانه إن شاء؛ غفرها جميعًا، وإن شاء؛ غفر بعضها[1]، فجاءت ﴿مِّن﴾ هنا؛ "دفعًا لتوهُّمِهم أنَّهم إذا أجابوا داعيَ الله تعالى، وآمنوا به؛ يغفر لهم ما تقدَّم من ذنوبهم وما تأخَّر"[2]، ولا يتوهَّموا جواز فعل كلِّ الذُّنوب بعد إجابتهم داعي الله تعالى وإيمانهم به، ويشمل التَّبعيض مغفرة "ما كانَ في خالصِ حقِّ الله تعالى؛ فإنَّ حقوقَ العبادِ لا تُغفرُ بالإيمانِ"[3]، أو أن تكون ﴿مِّن﴾ هنا "لابتداء الغاية، والمعنى: أنَّه يقع ابتداءُ الغُفران من الذُّنوب، ثمَّ ينتهي إلى غُفران ترك ما هو الأولى"[4].

ليس لأحدٍ أن يحكم لأحدٍ بمغفرة مطلقة أو عقوبة مطلقة

بلاغةُ استعمالِ مفردة الذُّنوب دون السَّيّئات:

آثر النَّظم الكريم على لسانِ الجنِّ ذِكر الذُّنوب في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ دون السَّيّئات، والذَّنبُ – على أحد المعاني – هو ما يتعلَّق بالمعصية الَّتي تكون بين العبد وبين ربِّه، والسَّيّئة ما يخالف منهج الله تعالى مع عباد الله سبحانه، فيسوؤهم، وعليه جاء الدُّعاء: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: 193][5]، فجاء الوعد بمغفرة الذُّنوب، وهو ما يتعلَّق بحقِّ الله تعالى، دون ما يتعلَّق بحقوقِ العباد من السَّيِّئات.

المعصيةُ بحقِّ الله تعالى ذَنْبٌ، وبحقِّ العباد سيِّئةٌ

نوعُ واو العطفِ ودلالتها:

(الواو) في جملة: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ عاطفة على جملة: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ عطْف مسبَّبٍ على سببه؛ لأنَّ

عطفُ المسبَّب على السَّبب مرغِّبٌ في الإجابةِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 206.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 937.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 31.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/ 1964.

الإجارة مِن العذاب الأليم مسبَّبة ومتوقِّفة على غفرانِ الذُّنوب، وبمجموعهما يكتمل جواب الطَّلب ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، فهذا العطف من باب عطف المسبَّب على سببِه، والجمعُ بينهما فاعلٌ في سياقه ترغيبًا كان أو ترهيبًا.

بلاغةُ استعمال مفردة (يُجِرْكُم):

مَن حَظِيَ بجوارِ اللهِ؛ حَظِيَ بالسَّعادة الدّائمة

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مفردة الإجارة في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لما فيها من معاني الإنقاذ من العذاب الأليم والحفظ، وفيها كذلك إيحاءٌ بإسعادهم بكرامات الجوار، فللجوار حقوقُه في أعراف النّاس جميعًا، فكأنَّ الله تعالى يتَّخذهم جيرانًا، ويمنحهم حقوقَ الجوارِ مِن الحماية والدِّفاع، ومن التَّكريم والإكرام؛ لذلك فسَّرها ابن عطية بأنَّه سبحانه "يمنعكم، ويجعل دونكم جوار حفْظِه؛ حتّى لا ينالكم عذاب"[1]، فـ "يمنعكم إذا أجبتم مَنْعَ الجار لجاره؛ لكونكم بالتَّحيُّز إلى داعيه صِرْتُم مِن حزبه"[2].

نوعُ ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ "لتعدية فعل (يُجِرْكُم)؛ لأنَّه يُقال: أجاره من ظلم فلان، بمعنى: مَنَعَه، وأبعده"[3].

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿عَذَابٍ﴾:

العذابُ يُذهِبُ عذبَ الحياةِ، ويمحقُ سعادتها

أتى النَّظم القرآنيُّ بمفردة ﴿عَذَابٍ﴾، وهو الإيجاعُ الشَّديد، وأصل التَّعْذيب إكثارُ الضَّرب بِعَذَبَةِ السَّوطِ، أي: طرفها، وقال بعض أهل اللُّغة: التَّعْذيبُ هو الضَّربُ[4]، فقول نفر الجنِّ لقومهم: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: ينقذكم، ويحفظكم من إيلام النّار

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 106.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 183.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 61.
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (عذب).

والزَّمهرير وغيرهما يوم ألا يكون أمام العبد من خيارات إلّا الجنَّة أو النّار.

وإذا كان معنى أُعذِب الحوضُ، أي: نُزِع ما فيه من العذَب، أي: الكَدَر، وعذُب الحوض: صار مستساغًا، والعذْب من الشَّراب والطَّعام: كلُّ مستساغ، ومنه: عَذْبٌ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الفرقان: 53]، أي: حُلوٌ شديد العذوبة، ففي التَّعذيب معنى الإزالة في التَّفعيل، فيكون معنى عذَّبه: أزال عَذْب حياته، كمرَّضه: أزال مرضه[1].

وعلى ذلك فوَعْد نفر الجنِّ قومَهم بالإجارة من العذاب الأليم؛ إن أجابوا داعي الله، وآمنوا به، وعدٌ بحياة عذْبة هنيَّة مستساغة، لا كدر فيها ولا مشاقَّ، فالمعاني اللُّغويَّة أصول تُستمدُّ منها المعاني القرآنيَّة، وتُبنَى عليها.

دلالةُ تنكير لفظِ ﴿عَذَابٍ﴾:

عـذابُ الكافرين فـظـيـعٌ منـكـورٌ نَكارةَ كفرهم

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٍ﴾ تهويلًا لخطورته، وإيحاءً بأنَّه ﴿عَذَابٍ﴾ لا قِبَل لقومهم بهوله ثقلًا وشِدَّةً وإيجاعًا؛ لأنَّه من الفظاعة بحيث لا يُقادر قدرُه، فتنكيره ناسب نكارةَ الكفر من جهةٍ، كما ناسب الجهل بِكُنْهِه وفظاعته من الجهة الأخرى.

علَّةُ وصف العذاب بالأليم:

تـنـوُّعُ أوصـافِ العذاب في الذِّكر الحكيم بِحسب تنوُّعِ المعاصي

وُصِف العذاب بصفةِ ﴿أَلِيمٍ﴾، وهو الوجيع، الَّذي يَخْلُص وجَعُه، وينتهي إلى قلوبهم[2]، والسّياقات القرآنيَّة تستدعي لنفسها أوصافًا تناسبها للعذاب، والَّذي اقتَضى وصفَ العذاب بصفة ﴿أَلِيمٍ﴾ هنا أنَّ الوعيد هو لمضمرات القلوب من الكفر بالله ﷻ، والعناد لداعي الله تعالى، فالتَّهيئة لوصف ﴿عَذَابٍ﴾ بالإجارة تلائم جانب الإحساس، فناسب ذلك ﴿أَلِيمٍ﴾، بخلاف وصْف (مهين) مثلًا، فسياقاته تهيِّئ لوصف الإهانة.

(1) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عذب).
(2) الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 3/ 106.

بلاغةُ المجازِ في صيغةِ ﴿أَلِيمٍ﴾:

عـذابُ الكافرِ قطعةٌ من الألمِ والإيلامِ

صيغَ وصْفُ ﴿عَذَابٍ﴾ بـ ﴿أَلِيمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، وإنَّما هو (مؤلم)، أي: "موجع"[1]، غير أنَّ وصف (الأليم) أدخلُ في الإيلام، وأدلُّ على شدَّتِه بحيث لا يُتصوَّر احتماله، أمّا (مؤلم)؛ فيُطلق على كلِّ ألم قد يُحتمَل وقد لا يحتمل، ولن تبلغ صيغة اسم الفاعل (مؤلم) مبلغ صيغة المبالغة ﴿أَلِيمٍ﴾ في الدَّلالة عن هول العذاب وفظاعته، ولِشدَّة ذلك العذاب المؤلم، الَّذي يؤلم المعذَّبَ به إيلامًا لا يُطاق، وصفوه بأنَّه في ذاته ﴿أَلِيمٍ﴾، وكأنَّه صار في ذاته قطعة من الألم والإيلام.

وإلى ذلك ففي وصف ﴿أَلِيمٍ﴾ حرفُ مدٍّ يُشعر بتطاوُل إيلامه على الكافر، وأنَّه يمتدُّ، ولا ينقطع عنه، أمّا (مؤلم)؛ فاللَّفظ مقطوع قطعًا يوحي بانتهاء إيلامه إلى أمدٍ محدَّد، وهكذا تتآزرُ الصّيغةُ الصَّرفيَّة مع الإشارة الصَّوتيَّة على بيان ما سيلقاه الكافر من عذاب ﴿أَلِيمٍ﴾ موجِع في الآخرة.

نكتةُ تقديمِ غَفرِ الذُّنوب على الإجارة من العذاب:

مغفرةُ الذُّنوب تَخليةٌ مقدَّمةٌ على تحليةِ الإجارةِ من العذاب الأليم

قُدِّمَ غَفْرُ الذُّنوب على الإجارة من العذاب في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ طبيعة التَّرتيب بين هذين الحدثين يقتضي تقديم المغفرة - الَّتي هي تخليةٌ من الكفر، وتطهير من آثاره - ثمَّ تأتي الرَّحمة الرَّبّانيَّة بالإجارة من العذاب الأليم.

نوعُ الواو ودلالتها:

إثـرُ التَّرغيبِ يكمُل التَّرهيب لاكتمال عناصر الدَّعوة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عاطفةٌ[2]، فعطفت هذه الجملة على الجملة السّابقة؛ لبيانِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 172.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 192.

نتيجة حالين مختلفتين، حال المجيب وما يكون له، وحال المعرض وما يكون له، وفي هذه الجملة "إيجابٌ للإجابة بطريق التَّرهيب إثر إيجابها بطريق التَّرغيب وتحقيق لكونهم منذرين"[1]، وتحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة على جعل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ ليست من كلام الجنِّ، بل هي من كلام الله تعالى، فتكون كالتَّعقيب على ما قالوه.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

حكمةُ الدَّعوةِ تقتضي تحاشي مجابهة المدعوّين

التفت النَّظم الكريم من خطاب القوم في جملة: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، إلى الإخبار عن حُكْم غائب في جملة: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾، وكان الظّاهر يقتضي أن يطَّرد خطابُهم إيّاهم فيقولوا: (وإن لم تجيبوا داعي الله؛ فلستُم بمعجزين في الأرض).

ومن لطائف ذلك الالتفات تَحاشي مجابهةِ قومِهم المدعوّين بما ظاهره تهديدٌ مباشر لهم، وتجنُّب استفزاز قومهم بما قد يحول بينهم وبين الإيمان، والدّاعون نفرٌ منهم، حريصون أشدَّ الحرص على أن يتخلَّص قومهم من الكفر، ويظفروا بالإيمان.

علَّةُ التَّعبيرِ باسم الشَّرط موصولًا (مَن):

الموصولُ الشَّرطيُّ يهيِّئ التَّركيب اللَّفظي

آثر النَّظمُ الكريم استعمال اسم الشَّرط موصولًا في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الموصولَ يُهيِّئ التَّركيب لِذكر جملة تفاصيل لا يُهيِّئُه لها الاسم الصَّريح، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: (والمعرضُ ليس بمعجز في الأرض)، فالموصولُ الشَّرطيُّ (مَن) هيَّأ هنا لجملة الشَّرط ﴿لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وفيها صُبَّ النَّفيُ بـ ﴿لَّا﴾ على الإجابة ﴿يُجِبْ﴾.

براعةُ إيثار النَّفي على الإثبات:

من براعة النَّظم الكريم إيثارُه التَّعبير بأسلوب النَّفي في جملة:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 189.

العنايةُ بالألفاظِ الخادمةِ للمعاني الظاهرةِ والإيمائيَّة

﴿لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ على الإثبات، فلم يقل: (ومن يعرض عن داعي الله)؛ وذلك لأنَّ النَّفي هيَّأ لتكرار التَّصريح بالإجابة منفيَّةً بعد ذِكرها مثبتة في جملة ﴿أَجِيبُواْ﴾؛ فيطَّرد الأسلوب على مهيع طباق السَّلبِ بين ﴿أَجِيبُواْ﴾، و﴿لَّا يُجِبۡ﴾، وللإيماءِ إلى مدحِ المُجيب لداعي الله تعالى.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

من أساليبِ الوفاءِ بالمعاني إظهارُ ما حقُّه الإضمار

آثر النَّظم الكريم إظهار تركيب ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، في قولهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّ مقتضى الظاهر إضماره: (ومن لا يجبه)؛ وذلك لذِكره في الآيةِ السّابقة: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك الإظهار إلحاحٌ على التَّذكير بدلالات ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ من جهةٍ، والوفاء بحقِّ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ في الجهة الأخرى؛ إذ ليست دلالاتُه المفصَّلة تحت عناوينه سلفًا ممّا شأنه أن يُضمر، ويُختصر، ويُطوى في ضمير، وفي الإظهار كذلك "مبالغة في الإيجابِ بزيادةِ التَّقريرِ، وتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ"[1].

نوعُ (الفاء) ودلالتها:

دلالةُ الفوريَّة تصاحب الفاء

(الفاء) في جملة: ﴿فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ رابطة للجواب بالشَّرط، وهي هنا قائلة بِتَرَتُّبِ الجزاءِ على الشَّرط مع دلالة الفورية العاجلة منها، ممّا يستثير الخوف في نفوس القوم من سرعة المصير إلى العقوبة.

نكتةُ إيثارِ النَّفي بـ (ليس):

تهيئةُ التَّركيب لاسميَّة الجملة

آثر النَّظم الكريمُ نفيَ إعجاز من لا يجيب داعيَ الله تعالى في الأرض بـ (ليس) دون (لا)، وفي ذلك تهيئةٌ لاسميَّة الجملة بعدها، واسميَّة الجملة هنا تشتمل على جملة لطائف وإشارات لا تُطيقها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.

الجملة الفعليَّة - كما سيأتي تفصيله - فضلًا عمّا لا يخدم السّياق هنا من دلالة الجملة الفعليَّة من مثل دلالة التَّجدُّد وغيرها.

نوع (الباء) ودلالته:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾ للتَّوكيدِ، ولِلَفْت الأنظار إلى مضمون الخبر، وهو نفي قدرة مَن لا يجيب داعي اللّه على التَّأثير في الكون بشيء.

بلاغةُ استعمال مفردة (معجز):

الإيماءُ إلى ما يجولُ في الصُّدور من القدرةِ على الهرب

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة (معجز) في قولِه تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على نفي أن يُفلت منه أحدٌ بحال مُطلقًا، وتدلُّ مفردة (عجز) على التَّأخُّر والضَّعف، والمعنى: أنَّه ليس بمعجزٍ اللّه تعالى، فيسبقه، ويُفلت من عقوبته، فالكافر ليس بسابقٍ أو هاربٍ من عذابه تعالى، وللإيماءِ إلى ما قد يظنُّه بعضُ المخاطَبين من القدرةِ على السَّبقِ والإفلات من العقوبة، لا سيَّما أنَّ للجنِّ قدراتٍ فائقةً أودعها اللّه تعالى فيهم، وهم يرون لأنفسِهم تلك القدرات الَّتي تفوقُ قدرات الإنسِ، ففي هذه المفردة كشْفٌ عمّا يجولُ في بعض الصُّدور.

نكتةُ حذف متعلّق (معجز):

حُذِف متعلِّق اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والمقصود "فليس بمعجزٍ اللّه تعالى"[1]؛ للتَّأدُّبِ مع اللّه تعالى، وتربية المهابة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بحرف الظَّرفيَّة:

قدرته تعالى محيطةٌ بالعبادِ بالغةٌ جميعَ الكون

جاء استعمال حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، بغرض "تعميم الجهات، فجرى على أسلوب استعمال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

الكلام العربي، وإلّا فإنَّ مكان الجنِّ غيرُ معيَّن"[1]، "وإن هرَب كلَّ مهرب من أقطارها، أو دخل في أعماقها"[2]، فلا مهرَب له، "فهو في مُلكه ومِلكه، وقدرتُه محيطةٌ به"[3].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

المقصودُ بالأرضِ الحياةُ الدُّنيا

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، للعهدِ الذِّهني، فهي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ الَّتي تعيشون فيها، وتتقلَّبون في أرجائها، وأطلق الأرض المعهودة، وأراد الحياة الدُّنيا، فمِن معاني ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أن تُطلَق على الدُّنيا[4]، فيدخل فيها الأقطار والأعماق، ذلك أنَّ الجنَّ تنتقلُ من مكانٍ لآخر بقدراتٍ تفوق قدرات البشر المعهودةِ، وقد تخرج من الأرضِ الَّتي نعرفها، فإرادة الحياة الدُّنيا هو الأولى بالمقامِ.

نوعُ (الواو) ودلالتها:

النَّجاةُ منفيَّةٌ عن المعرضِ في الدُّنيا والآخرة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ عاطفة، تُعدِّد على مَن لا يجيب داعي الله تعالى أنواع الخُسران، الَّتي تناله جرّاء كُفره بالله تعالى وعدم إجابته داعيه، وتُبَيِّن " استحالةَ نجاتِه بواسطةِ الغيرِ إثرَ بيانِ استحالةِ نجاتِه بنفسِه"[5].

بلاغةُ التَّعريض بالمشركين:

نفيُ النَّصير عن نوعٍ تعريضٌ بغيرِه

دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ على نفي النَّصير للمعرضِ عن إجابة داعي الله، أي: "لا نصير يَنصره على الله، ويحميه منه، فهو نفيُ أن يكون له سبيل إلى النَّجاة بالاستعصامِ بمكانٍ لا تبلغُ إليه قدرةُ الله تعالى، ولا بالاحتماء بمن يستطيع حمايته من عقاب الله ﷻ، وذِكر هذا تعريضٌ للمشركين"[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 937.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 184.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 206.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

نكتةُ تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على اسم (ليس):

من بلغه تقريعُ التَّخصيص؛ فقد أصابه سوطُ التَّرهيب

قُدِّم ذكر ﴿لَهُۥ﴾ على اسم (ليس) في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾؛ تنبيهًا إلى خطورة عدم إجابتهم ﴿دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وكأنَّهم هم الأخسرون الوحيدون مِن بين الأنام جميعًا، على القصر الادِّعائي؛ فهُم ليسوا الوحيدين في خسارةِ النَّصير، وإنَّما يُقَرِّعُهم تقديم ﴿لَهُۥ﴾، فإنَّ الاعتناءَ بالتَّرهيب والتَّقريعِ كالعنايةِ بالتَّرغيبِ والتَّقريب من حيث الأثرُ في المخاطَب.

نوع (اللام) ودلالتها:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ لامُ الاختصاص، أي: إنَّ مَن لا يجيب داعي الله لا يختصُّ بوليٍّ يَدفع عنه، ويهتمُّ لأمره.

نكتةُ مرجع الضَّمير مفردًا على الجمع:

الضَّمير المفرد في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ﴾ عاد على ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾، باعتبار لفظ (مَن)، والمراد به الجمع؛ لبيانِ أنَّ الكثرةَ الكاثرة كالمفرد.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾:

كلُّ الخلقِ دون الله تعالى في النُّصرةِ والمكانة

آثر النَّظم الكريم استعمال لفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ لبيانِ أنَّ كلَّ الخلقِ هم دون الله تعالى، وأنَّه ليس لأحدٍ أن ينصرَ المعرضَ عن دينِ الله تعالى، لكن أتى بـ(دون)؛ لبيانِ أنَّ الخلق هم في حال الدون من الخالقِ في القدرةِ والعلم والنُّصرة والعظمة، فكيف لهم أن ينصروا أنفسهم فضلًا عن نصرةِ غيرِهم ممَّن أعرض عن دينِ الله تعالى، فهؤلاء لهم حال العدم في النُّصرةِ والمعونة.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿دُونِهِۦٓ﴾:

الضَّميرُ المضاف إليه الظَّرف في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ﴾ يرجع إلى اسم الجلالةِ في قوله: ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس له "من دون ربِّه نُصَراء ينصرونه من الله تعالى؛ إذا عاقَبَه ربُّه على كُفره به وتكذيبه داعيه"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالولاية دون النُّصْرة:

كـلُّ ولايـةٍ غيرُ نافعةٍ للمعرضِ عن دين الله

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة ﴿أَوْلِيَآءُۚ﴾ دون (نصراء)؛ لما في لفظ الولاية من معاني الاتِّصال والقُرب؛ فالنُّصرةُ عن قُرب، مع المناداة على لفظِ المحبَّة الَّذي يكون من معاني الولاية، فنفي الولاية النّافعة عن كلِّ أحدٍ في حقِّ ذلك المعرِض عن إجابةِ الدّاعي إلى الله تعالى، أبلغ من ذكر النُّصرةِ، لعمومِ معانيها، وبليغ دلالاتها الظاهرة والإيحائيَّة.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَوْلِيَآءُۚ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أَوْلِيَآءُۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ﴾ لإفادةِ العموم؛ لوقوعه في سياق النَّفي ولقيدِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ فلا أولياء نافعين لهم ألبتة.

فائدةُ جمع ﴿أَوْلِيَآءُۚ﴾:

زيـادةُ التَّيئيس أن يكون هناك وليٌّ مـن دون الله

جاء لفظ ﴿أَوْلِيَآءُۚ﴾ مجموعًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ﴾؛ لمراعاة مَعْنى (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، "فيكون من باب مقابلةِ الجمع بالجمع؛ لانقسامِ الآحادِ إلى الآحادِ"[2]، فمهما تعدَّد المعرضون عن إجابة الدّاعي، وتعدَّد معهم الأولياء؛ فالنَّتيجة واحدة، وفائدة الجمع المبالغةُ في كثرة الأولياء المنفي نفعهم؛ زيادةً في التَّيئيس وقطع الرَّجاء أن يكون هناك وليٌّ من دون الله تعالى.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 173.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 89.

علَّةُ فصل جملة الفاصلة:

تعليلُ الأحكام أقوى في البيانِ وأبلغُ في المقاصد

فُصِلت جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن جملة: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للاستئناف البيانيِّ؛ إذ جاءت الثّانية وافية بجواب سؤال تثيره الأولى: وما وصف هؤلاء؟ أو: ولمَ لا يُجيبون داعي الله تعالى؟ فجاء الجواب ببيان سبب ذلك، وأنَّه غَرَّقُهم ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فالجملة تعليليَّة.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارة للبعيد:

الكافرُ بعيدٌ عن كلِّ خير، مبعَد عن ساحات العطايا والكرامة

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ اسمِ الإشارة للبعيد، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ استحضارًا لمن لا يجيبون داعي الله تعالى، ولم يؤمنوا به سبحانه؛ استحضارًا مميِّزًا موجَزًا؛ ليُصبَّ عليهم الحكمُ الفاضح بكونهم ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فالبُعد في الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُبعدهم عن ساحة الطُّهر والكرامة إلى تيه الكفر والضَّلال، ويُبيِّن أنَّهم "بعيدون من كلِّ خير"[1]، فالبُعد مناسبٌ لِظُلمة الضَّلال وتيهه، مُنَبِّهٌ إلى أنَّ "مَن هذه حالهم جديرون بما يرد بعد اسم الإشارة مِن الحكم؛ لِتَسبُّب ما قبل اسم الإشارة فيه"[2].

بلاغةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

الكافر مغمور في تيه الكفر وظلمات الضَّلال

أفاد حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ غرق المعرضِ في الضَّلال المبين، بحيث يلفُّه الضَّلال، ويطويه، ويَغمُره، ويحيط به إحاطة الظَّرف بالمظروف، إحاطةً وطَيًّا يلائمان عالم الرّوح، فالظَّرفيَّة هنا مجازيةٌ؛ لإفادة قوَّة تلبُّسهم بالضَّلال حتَّى كأنَّهم في وعاء هو الضَّلال[3].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿ضَلَٰلٖ﴾:

في كلمة ﴿ضَلَٰلٖ﴾ استعارة مكنيَّة، فقد شُبِّه الضَّلال الَّذي يَغمر

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.

روح الكافر بِوعاء أو ظرفٍ يلفُّ مظروفَه، ويحيط به، وحذف المشبَّه به، ودُلَّ عليه بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، وهي استعارة مخيفة لكلِّ عاقل مِن أن تغرق روحه في ظلمات الضَّلال، أو تسقط في مستنقع الكفر الآسن، فتحجُب عنه أنوار الهُدى، والعياذ بالله.

ظلمةُ الكُفر كثيفة؛ تَحجب عن الكافر كلَّ قَبَس منير

بلاغةُ استعمالِ مفردة الضَّلال دون الكفر:

في إيثار التَّعبير بالضَّلال دون الكفر، في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ﴾، تنبيهٌ على اختلال عقول مَن لا يجيبون داعي الله تعالى، ولا يؤمنون به ﷺ، فإنَّ مَن آثر الكفر على إجابة داعي الله تعالى وعلى الإيمان به سبحانه مطموس الروح، مظلم النَّفس، مختلُّ الفكر، ضالُّ الذِّهن، أعمى البصيرة، فذكر الضَّلال؛ لبيانِ أنَّه العلَّة الأولى والنَّتيجة النِّهائيَّة للكافر، فإنَّه يبدأ بضلالٍ، وينتهي بضلال العناد والإصرار على الباطلِ.

الضَّلالُ علَّة الكفرِ ونتيجته المستمرَّة

نكتةُ تنكير لفظ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿ضَلَٰلٍ﴾؛ لبيانِ الإبهامِ والغموض، فالضَّلال في ذاته غامضٌ خفيٌّ، وتنكيرُه زادَه غموضًا ونكارةً.

لطيفةُ وصف ﴿ضَلَٰلٍ﴾ بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

وُصِفَ لفظُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ بصفةِ ﴿مُّبِينٍ﴾؛ وذلك لأنَّ الضَّلال خفيٌّ غير ظاهر في ذاتِه، لكنَّه مبينٌ في كونه يوصل إلى كلِّ الطُّرقِ إلّا طريق الخير والهدى والحقِّ، فهذا وجه كونه مبينًا، فهو بيِّنٌ في وظيفته الَّتي تحرف عن طريق الحقِّ، كما أنَّه "ضلال قامت الحُجَج والأدلَّة على أنَّه باطل"[1]، "ظاهر في نفسه أنَّه ضلال"[2]، فمن طُمست بصيرته عن رؤيته وتمييزه؛ كان من الشُّؤم بمكان بعيد.

الضَّلال مبينٌ في كونه يحرف عن طريق الحقِّ والهدى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 62.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 185.

بلاغةُ المجازِ في الوصف ﴿مُّبِينٍ﴾:

المعرضُ عن الحقِّ مع إبانة الضَّلالِ في ضياعٍ طامسٍ

الضَّلال يكون بيِّنًا في نفسه، واضحًا مكشوفًا لذوي البصائر النّافذة والعقول القويمة والأنفس المستقيمة، غير أنَّه يوصف في الذِّكر الحكيم بأنَّه ﴿مُّبِينٍ﴾، وذلك أنَّه هو الَّذي يُبين عن نفسِه، ويُخبر الضّالّين بأنَّ اختيارهم للكفرِ وإيثارهم له على الإيمان واضحُ الاختلال، فالمجاز في إسناد معنى الإبانة للضَّلال؛ إذ هو الَّذي يقوم بفعل الإبانةِ، وفي ذلك كناية عن سَفَهِ عقولهم؛ لأنَّه ﴿ضَلَٰلٍ﴾ لا يحتاج إلى مُبينٍ يُبين عنه، فما بالهم يأتيهم داعي اللّه تعالى، ويكشفه لهم كشْفًا إلى كشْفه، ولا يهتدون!.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"